إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الأولى – العدد الأول – ربيع ١٣٩٠ش / آذار ٢٠١١م

الغزل الصوفی عند ابن الفارض وجامی؛ دراسة نقدية مقارنة فی المضمون

محمد هادی مرادی*
فاطمة نصراللهی**

الملخص

إن الأدب المقارن من أهم الفروع الأدبية لأنه يعالج الصلات التاريخية الموجودة بين أدبين مختلفين، موضحا وجوه خلافهما وتشابههما. ويشترط فی هذا الحقل النقدی أن تكون لغة موضوع الدراسة مختلفة. تتطرق هذه الدراسة المتواضعة إلى الغزل الصوفی للشاعرين الكبيرين ابن الفارض وجامی من حيث المضمون، على أنهما كانا من أعلام الشعراء الصوفية فی الأدبين العربی والفارسی. فتلقی الضوء على حياة الشاعرين، ثم تنطلق نحو دارسة مضامينهما الشعرية على أساس أهم مظاهر الشعر الصوفی كالخمر والمرأة اللتين يوظفهما الشاعر لبيان المفاهيم العرفانية.

الكلمات الدليلية: ابن الفارض، جامی، الغزل الصوفی، الحب، الخمر، المرأة.

---

*. أستاذ مساعد بجامعة العلامة الطباطبايی.
**. خريجة جامعة آزاد الاسلامية فی كرج.
hadimoradi29@gmail.com

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٢/٢٥هـ. ش
تاريخ القبول: ١٣٩٠/٣/٢١هـ. ش

المقدمة

إن التصوف ظاهرة دينية قوية بدأت حوالى القرن التاسع الهجرى، وانتشرت منذ ذاک الزمن فى الممالک الإسلامية، وهى نزعة ذات الفرق الکثيرة فى کل أنحاء العالم الإسلامى، وجذبت الکثيرين من الشعراء. أما اللذان يشار إليهما فى هذا البحث فهو ابن الفارض المصرى الذى مشهور بأشعاره الصوفية الجزيلة، وجامى الذى هو من أشهر شعراء الفرس الصوفية. وقامت الدراسة بالمقارنة بين غزلهما الصوفى مضمونا.

حياة ابن الفارض

هو عمر بن على بن المرشد بن على شرف الدين أبوحفص الحموى الأصل، ولد بالقاهرة فى الرابع من ذى القعدة سنة ٥٧٦ق، قدم أبوه من حماة فى بلاد الشام إلى مصر فأقام فيها، وکان يثبت الفروض للنساء على الرجال بين يدى الحکام ولقب بالفارض، وهناک رزق بولده عمر، لذلک سمى بالفارض. (ابن غالب، لاتا: ۳)

يبدو شعر ابن الفارض من الوجهة الفنية نموذجا صادقا للتعبير الشعرى المنبثق عن تجربة ذاتية أصلية، وذلک لأن أحواله ومنازلاته ومواجيده الروحية هى التى کانت تحرک فيه القوافى والأوزان، فتجعله ينشط للشعر، إذ يصف به أحواله عن ذوق فردى أصيل لا عن تقليد أو محاکاة. (جودة نصر، لاتا: ۳۰۵)

وکانت وفاة سلطان العاشقين شرف الدين عمر ابن الفارض فى العام الثانى والثلاثين بعد المائة السادسة للهجرة، ودفن فى سفح جبل المقطم فى مکان يدعى اليوم قرافة ابن الفارض. ومازال قبره حتى الساعة مزارا يزدحم بأفواج المؤمنين. (ابن الفارض، ۲۰۰۵م: ۱۵)

حياة جامى

ولد جامى فى خرجرد فى مدينة جام، وقت العشاء الثالث والعشرين من شعبان المعظم سنة سبع عشرة وثمانمائة. کان لقبه الأصلى عمادالدين، ولقبه الذى اشتهر به

نورالدین، واسمه عبدالرحمن. (لاری، ۱۳۴۳ش: ۳۹)

وبما أن مولده کان فی جام، وفیها مرقد شیخ الإسلام احمد جامی اختار لنفسه جامی. (جامی، ۱۳۸۳ش: ۱۶)

کان من کمالات أستاذ جام، ذوقه الشعری وهو کان مشهورا بهذا الفن فی عصره ومعروفا بالبراعة عند أکثر المتکلمین فی اللغة الفارسیة فی إیران وترکستان والهند، ولقب بخاتم الشعراء لأنه انقضی بوفاته نظم الشعر بأسلوب الشعراء القدامی الذی کان معروفا فی خراسان وفارس والعراق، وبعد وفاته حتی القرن الثالث عشر لم یطلع نجم مشرق من تلک النجوم القدیمة فی أفق الأدب الفارسی. (حکمت، ۱۳۸۶ش: ۱۱۱)

عاش جامی إحدی وثمانین سنة، وفی صباح یوم الجمعة وفی الثامن عشر من محرم الحرام، ظهرت آثار الرحیل من مقام الفناء إلی دار القرار، وتوفی سنة ثمان وثمانمائة ودفن فی هرات. (لاری، ۱۳۴۳ش: ۴۴)

أشعار ابن الفارض و جامی فی المضمون

مع أنّ الشکل قسم هام لکلّ أثر أدبی، نتطرق فی هذه العجالة إلی مضامین الشاعرین الشعریة، لأنّ الشعر أو النثر لایخلق إلا بسبب مضمونه، ولکل مضمون فکرة خلقته. وبهذه الصورة مع خلق الآثار الأدبیة المتعددة تنتشر الأفکار فی العالم وتؤثر علی الحیاة البشریة. لکل نوع من الشعر مظهر، ومظاهر الشعر الصوفی هی التی تساعدنا علی فهم أشعار ابن الفارض وجامی. الخمر مظهر من المظاهر التی انصرف إلیها ابن الفارض فی أشعاره بشکل واسع، وإدراک معناها یفتح بابا من المعانی أمام القارئ.

الخمر فی شعر ابن الفارض

الخمر موضوع هام فی شعر شعراء الصوفیة، ومع السیر فی دیوان ابن الفارض تبدو أهمیته فی أشعاره بحیث أنه اختصّ قصیدة کاملة لبیان هذا الموضوع مع أن أکثر الشعراء یستخدمونها خلال أشعارهم بشکل شتّی.

القصيدة الخمرية هی أهم القصائد فی ديوان ابن الفارض بعد تائيته الكبری. يقوم الشاعر فی هذه القصيدة بوصف الخمرة وصفاً عميقاً، کی يبلغ غاية غير مادية، ويجبر القارئ علی العبور من ظاهرها إلی باطنها. فی ظاهر القصيدة يبدو أن ابن الفارض وصف الخمر، ولكن لكونه شاعراً صوفياً فإنّ لكل ألفاظه مفهومين، فللخمر فی نظرته معنی آخر. فی بداية القصيدة يأتی الشاعر بذكر حبيب هو مبدأ كل شیء فی الحقيقة، ومبناه؛ وقصة هذه المدامة التی يصفها حتی نهاية القصيدة ترجع إلی هذا الحبيب، وهو الغاية النهائية فی الأصل:

شـــربنا علی ذكر الحبيـــب مدامة　　　سـكرنا بها، قبل أن يخلق الكرم

(ابن الفارض، ٢٠٠٥م: ١٧٩)

هذا هو الحبيب الذی كان حبّه فی قلب الشاعر قبل خلق العالم فهو حبّ عريق. ثم يبدأ بوصف الخمر، إذ يختص قسم كبير من القصيدة بها. بدقة النظر فی هذه الأوصاف يبدو كأنّ الصفات المذكورة لشیء أعلی من الخمرة المادية، والخمر فی الحقيقة تمثّل غيرها، وهی يمكن أن تكون رمزا للحبّ، رمزٌ لحبّ أصيل لحبيب أزلیّ. وهو يصف الخمر كمفتاح كل قفل ودواء كل داء، ويقول:

وإن خطرت يوما علی خاطر امرئ　　　أقامـت بـه الأفراح، وارتحـل الهمّ
ولـو نظـر الندمـان ختـم إنائهـا،　　　لأسـكرهم من دونها ذلـک الختم
ولـو نضحوا منهـا ثری قبـر ميت　　　لعادت إليه الرّوحُ، و انتعش الجسـم

(المصدر نفسه: ١٨٠)

أجل، إنّ ابن الفارض، يُظهر الخمر بأنها تشفی كل مرض وتحلّ كل مشكلة إذ يقول:

ولو طَرَحوا، فی فَیءِ حائط كرمها　　　عليلاً، وقد أشـفی لفارقهُ السـقمُ
ولو جُليت، سـراً علـی أكمهٍ غدا　　　بصيراً، و من راووقها تَسمعُ الصمّ

(المصدر نفسه: ١٨٠و١٨١)

وأنّه يصلح مفاسد الأمور الباطنية والأخلاقية كما يصلح الأمور الظاهرية:

تُهــذب أخلاق الندامــی، فیهتدی بها لطریــق العزم، مــن لا له عزم
ویکــرُمُ من لم یعرف الجــودَ کفَّهُ ویَحکُمُ، عند الغیظ، من لا لَه حلم

(المصدر نفسه: ۱۸۲)

هذه الخمرة بهذه الصفات الفاضلة والمؤثرة علی المخلوقات لیست إلّا الحبّ الإلهی، (جودة نصر، ۱۹۸۳م: ۳۶۳) الذی یشفی کل مریض ویحیی کل الموتی ویفتح کل الأبواب المغلقة ویبعث الفرح والبهجة ویذیب کل همّ وغمّ، حینما تنتشرُ رائحته فی العالم دون أن یدرک من جانب الخلائق بصورة کاملة. هذا هو الحب الذی سکر به الشاعر ولایقطع صلته به أبدا. أما فی قسم آخر من القصیدة فهو یقول:

یقولون لی : صفها، فأنت بوصفها خبیرٌ، أجل، عندی بأوصافها علم

(ابن الفارض، ۲۰۰۵م: ۱۸۲)

وبعد الفراغ من هذه الأوصاف یبین معرفته للخمر أو حب المحبوب کأنّه بین الناس معروف بهذه المعرفة وهم یطلبون منه وصف حبه العریق للمحبوب الحقیقی وهو کذلک یصدق هذه الإدعاء، قائلا:

صفــاءٌ ولا ماءٌ، ولطــفٌ ولا هواء ونــورٌ ولا نارٌ، وروحٌ ولا جســـم

(المصدر نفسه: ۱۸۲)

وکأنه محرم لأسرار المحبوب، یحصی میزات الخمر (الحب الإلهی)، ویقول بأنّ لهذا الحبّ صفات لیس لها مثیل، وهو مطهر خالٍ من التلوّث المادیّ وفی الحقیقة أعلی مما یبادر إلی الذهن. ثم ینصرف إلی تبیینه وما أدرکه منه عن أعماق قلبه ویتکلم عن قدمه، بأنه کان موجودا قبل أن یوجد ما فی العالم:

تقــدّم کُــلَّ الکائنــات حدیثُها قدیماً، ولا شکلٌ هناک، ولا رسم

(المصدر نفسه: ۱۸۲)

وخلق کل شیء علی حسب محبة الله وفهمها لایمکن إلا بواسطة العقلاء، والذی حرم عن هذه النعمة محروم عن إدراکها:

وقامت بها الأشــیاء ثَــمّ، لحکمة   بها احتجبت عن کلّ من لا له فهمُ

(المصدر نفسه: ۱۸۲)

ثمّ ینصرف الشاعر إلی البحوث الحکمیة فی الحبّ وفیها ظرائف عدیدة، مثلا:

ولا قلبهــا قبل، و لا بعدَ بعدها،   وقبلیّــة الأبعاد، فهــی لها حتم

(المصدر نفسه: ۱۸۳)

یذکّر البیت القاری، هذه الآیة الشریفة: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾ (الحدید: ۳) بمعنی أنّ الله تعالی وحبه کان الأول قبل وجود کل شیء، ویکون الآخر بعد إیجاد کل شیء، ولایسبق علیه شیء ولایلحق به شیء وکل شیء منه، وهذا بحث عمیق فی الحکمة یطلب مجالاً واسعاً، ثم یقوم الشاعر بالتعبیر عن نفسه أمام الحب ویقول:

وقالوا: شــربتَ الإثــم! کلّا وإنّما   شربتُ التی، فی ترکها عِندیَ الإثمُ

(ابن الفارض، ۲۰۰۵م: ۱۸۴)

یتهمه العوام بالإثم، لأنّه غریق فی بحر حب الله، ولکنه لایقبل کلامهم بل یعتقد بأن البعد عن هذا البحر العظیم هو الإثم والعصیان أمام المعبود. وهو یتکلم عن الفرح والنشاط الذی یحصل من قرابته عن المحبوب، وهو الذی ذاق طعم غرامه قبل أن تطأ قدماه عالم الطبیعة:

وعندی منها نشــوة، قبل نشأتی   معــی أبداً تبقی، و إن بَلیَ العظم

(المصدر نفسه: ۱۸۴)

وکان طعم الحب عنده حلو بحیث لاینساه حتی یموت ویبلی عظمه أی حتی لو لم یبق له أثر. نعم، حب الإله أطیب لذة عند الشاعر ولهذا یوصی الآخرین بکسبه خالصاً لوجه الله، لأنّه نبض حیاة الکائنات. وفی النهایة یقول فی ختام کلامه: إن الحیاة دون الحبّ الحقیقی هی الموت، ومن لایدرکه طوال عمره فهو المیّت:

فلا عیش فی الدنیا لمن عاش صاحیا   ومن لم یمت ســکرا بها فاته الحزم

علی نفســه، فلیبک من ضاع عمره   و لیــس له فیهــا نصیبٌ ولا ســهمٌ

(المصدر نفسه: ۱۸۵)

فحبّ الله رمز عظيم فی حياة ابن الفارض، وهو الذی عبر عنه بالخمر، بسبب أنّ الخمر تسكر الإنسان، وتضعف عقله وتفصله عن الدنيا، فالحب الإلهی مثل ذلک ولكن فی درجات عالية وليس فيه ضرر بل كله حُسن، لأن الإنسان لما يسكر من حب الله ينفصل عن عالم المادة ولايری إلا الله تعالی.

الخمر فی شعر جامی

ورد ذكر الخمرة فی أشعار جامی قليلا، بالإضافة إلی أن إشاراته فی بعض أبياته إلی الخمر ليست وصفا لها أو تعبيرا لما يرتبط بالخمرة، بل هو وسيلة لبيان موضوع آخر؛ فعلی سبيل المثال فی إحدی أوصافه للربيع يأتی بذكر الخمر ويقول:

ســاقی بيار می كــه گل از غنچــه رو نمود

چون بگذرد بهار وپشيمان شوی چه سود

(جامی،۱۳۴۱ش: ۴۰۸)

وفی موضع آخر فی وصف العشاق يذكر الخمر قائلا:

ساقيا صاف می عيش به خود كامان ده دُردی درد به خون جگر آشــامان ده

(المصدر نفسه: ۶۷۹)

وفی أكثر الأبيات التی جاءت بذكر الخمر الموضوع الرئيسی هو الحبيب وصفاته، مثلا فی وصف شفتی الحبيب، يقوم بذكر أوصاف جميلة يستمدها من الخمر ويقول:

ساقی زجام لعل تو يک نكته گفت دوش در حلق شيشه شد می چون ارغوان گره

وأيضا يقول:

جام می است لعل تو ليكن به جرعه ای زان جــام ياد باده گســاران نمی كنی

(المصدر نفسه: ۷۵۱)

وفی أبيات شتی لما يخاطب حبيبه ويحصی حسناته يدخل الخمر فی كلامه ويقول:

هر كه از ميكده عشق تو بويی شنود تا زيد مست زيد چون برود مست رود

وان کزین میکده بویی به مشامش نرسد　　　این قدر دولت او بس که به این می گرود

(المصدر نفسه: ۴۰۸)

وأیضا یقول:

هر قدح کز مـی تو کردم نوش　　　آفـت عقل بود وغـارت هوش

شـد به دور لـب مـی آلودت　　　پیـر مرشـد مرید بـاده فروش

(المصدر نفسه: ۹۶ و۱۰۸)

وفی مکان آخر یأتی بذکر محبوبه، کأنّه یدیر الخمر فی المجلس ویقول:

بیا ای ساقی گلرخ می گلرنگ گردان کن

بروی گل گل از می مجلس ما را گلستان کن

(المصدر نفسه: ۶۲۲)

بدقة النظر فی هذه الأبیات، یبدو أنّ جامی استخدم الخمر والحانوت والکأس فی أشعاره، لبیان حقیقة واحدة وهی محبوبه الذی هو خالق کل شیء، والشاعر یقوم بواسطة الخمر بالتعبیر عن حسناته الظاهریة والباطنیة، وحبه العمیق لمعشوقه الأزلی. هذه التعابیر توجد فی أشعار الصوفیین عادة، وجامی شاعر بارع فی بیان هذه الأوصاف، وله فی باب الخمر أشعار جمیلة، جاءت فی ما سبق ومنها قصیدة طویلة اختص الشاعر قسما منها بموضوع الخمر، ویفهم منه نوعٌ من السفر فی سبیل الوصول إلی المحبوب، یقول فیها:

صبحـدم بـاده شـبانه زدیـم　　　سـاغر عیـش جاودانـه زدیم

مسـت وبیخود زکنج کاشـانه　　　نقـب سـوی شـرابخانه زدیم

وز حریـم شـرابخانه عَلَـم　　　بر سـر کوی آن یگانـه زدیم

بهر یک جرعه می زسـاغر او　　　سـر خدمت بر آسـتانه زدیم

سـاغر از دور عارضش کردیم　　　باده خوردیـم واین ترانه زدیم

که می عشـق را تویی سـاقی　　　کأسـه شـمس وجهک الباقی

(المصدر نفسه: ۱۰۰)

وكأنّ الشاعر يحكى فى هذا الشعر قصة حبّه للمحبوب، والخمر فيها وسيلة الوصل والخمّارة مكانة الوصل بين المحبّ والحبيب، وكأنه المعبد الذى يعبد العاشق فيه المعشوق.

والأشعار التى سبق ذكرها، كانت فى موضوع الخمر بصورة مشتتّة، ولكن ما بقى عن جامى فى هذا الموضوع وهو الأهمّ، شرحه للقصيدة الخمرية لابن الفارض، نظم جامى كل مضامين أبيات الخمرية علاوة على شرحها فى هذا الأثر، أى كأنّه نظم قصيدة مستقلة فى الخمر بمدد الخمرية الفارضية، ومطلعها:

ماییم زجام عشــق تو جرعه کشــان   بر جرعه کشان خود گذر جرعه فشان
بر یاد تو آن صبــح صبوحی زده ایم   کز تاک نشــان نبود واز تاک نشــان

(جامى، لاتا: ۱۳۱)

شرح جامى الخمرية شرحا عرفانيا ونظم بدلا من أىّ بيت للخمرية بيتين والمضمون واحد وهو شرح قوى للخمرية، بقى عن جامى حتى الآن.

المقارنة بين الشاعرين فى أشعارهما الخمرية

بالمقارنة بين ابن الفارض وجامى فى أشعارهما الخمرية، يبدو أنّ انصراف ابن الفارض إلى موضوع الخمر وبراعته فيها أكثر من جامى ومضامينه الشعرية فى هذا الباب أقوى من مضامين جامى الشعرية، والأثر الذى تركته خمرية ابن الفارض على جامى وجعلته يشرحها، نفسه مصدّقٌ لهذا الكلام. ولكن ما يهمّ فى شعر هذين الشاعرين هو أن الخمر فى شعرهما مظهرمن مظاهر الحبّ الإلهى الذى هو أهمّ اللوازم للحركة فى طريق وصل المحبوب بحيث الشاعر وهو المسافر فى الطريق إلى الله لايستطيع أن يغمض عينه عنه، ودونه يصعب الوصول أم كأنه لايمكن أصلا. وكما أنّ الخمر تضيع العقل ويحرّر الإنسان عن إدراك كل شىء، الحبّ يفصل المرء عن الدنيا – و هو الحبّ الحقيقى – ويلفت نظره إلى أحد دون الآخرين وهو مركز الحياة وخالق الأرض والسماء.

المرأة فى شعر ابن الفارض

المرأة هى التى خلقها الله وراء الرجل كى يسكن فى ضوئها بالهدوء والاطمئنان، ولها صفات تجمع بها أفراد الأسرة وتحيى فيهم حرارة الحياة، وبسبب هذه الصفات ومنها الحنان والمحبة والإيثار أعطى الله لها مكان الأمومة لبقاء البشر. قصة حبّ الرجل للمرأة جرت طوال التاريخ كرارا، والأدباء نقلوها فى قوالب متعددة، وأهمية هذه القصة واضحة من تكرارها. كان هذا الحبّ من بداية ظهوره ماديا بين جنس الرجل وجنس المرأة، بعد ذلك مع ارتقاء فكرة البشر وثقافته، ارتقى حبه شيئا فشيئا، وهذا باب جديد لإدراك الحبّ الحقيقى. أمّا ابن الفارض والمعروف باشتغاله بالحب الحقيقى عن كثب أيضا، فهو كان فى بداية طريقه عاشقا للمعشوق المجازى. من خلال دراسة أشعار ابن الفارض يمكن أن تنقسم هذه الأشعار إلى الأقسام المختلفة من جهة انصرافه إلى موضوع الحبّ، على سبيل المثال قام الشاعر فى بعض الأحيان باستخدام اسم المرأة مباشرة فى شعره، وبعده بتوضيح قصة حبّه، هذا الموضوع جاء فى قصيدته اللامية حيث يقول:

وماذا عسى عنّى يقال سوى غدا ... بنُعم له شغلٌ نَعَم لى بها شُغلُ

وقال نساء الحَىّ عنّا بذكر من ... جفانا وبَعدَ العزِّ لَذَّ لَه الذُّلُ

إذا أنعَمَت نُعمٌ عَلىَّ بنظرةٍ ... فلا أسعَدت سُعدى ولاأجمَلَت جُملُ

(ابن الفارض، ٢٠٠٥م: ١٦٥)

بعد ذلك يقوم الشاعر بتبيين حبّه لها قائلا:

وقَد صَدِئَت عينى بِرؤيَة غيرِها ... ولَثمُ جفونى تربها لِلصَّدا يجلو

وقد عَلِموا أنّى قتيلُ لِحاظها ... فإنَّ لها فى كلّ جارحةٍ نصلُ

حديثى قديمٌ فى هواها وماله ... - كما عَلمت - بَعدٌ وليس له قبل

(المصدر نفسه: ١٦٦)

وكذلك يواصل الوصف حتى نهاية القصيدة.

وفى مكان آخر يكرّر الموضوع فى قصيدته اليائية إذ يقول:

سائِلى ما شَفَّنى فى سائل الد ... دَمعِ لو شِئتَ غنىً عن شَفَتَى

عُتبُ لم تُعتِب وسَــلمی أسلَمَت وَحَمی أهــلُ الحمِــیَ رُؤیَة رَی
واجــداً منــذ جفــا برُقُعهــا ناظِــری من قلبه فــی القلب کَی

(المصدر نفسه: ۲۱۵)

هذا نوع من شعره الذی استعمل اسم المعشوقه فیه بصورة مباشرة، وأمّا نوعه الآخر فهو شعر لیس فیه اسم المرأة، ولکن الشاعر خاطب شخصا مؤنثا فی کلامه لأنّ ضمائر المخاطب فیها کلها جاءت للمؤنث، هذا النوع من الشعر لیس بکثیر بین قصائد ابن الفارض ومنه ما قاله الشاعر فی قصیدته الیائیه:

قلتُ روحی إن تَرَی بسطَکِ فی قبضها عشــتُ فَرَأیــی أن تَرَی
أیّ تعذیــب ســوی البُعــد لنا منکِ عَــذبٌ حبذا مــا بعدَ أی
مــا رَأت مِثلــکِ عینی حســناً وکمثلــی بــک صبّــاً لــم تَرَی

(المصدر نفسه: ۲۱۱)

ومنه ما نظم فی تائیته الصغری حین یقول:

وما غَدَرت فی الحبّ أن هدرت دمی بشــرع الهوی، لکن وَفَــت إذ تَوَفّت
متی أوعدت أولت، و إن وعدت لوت وإن أقســمَت: لاتُبریء القسم، بَرّت
وإن عَرَضت أطــرق حیاءً وهیبةً، وإن أعرضَــت أشــفِق، فلــم أتلَفّت

(المصدر نفسه: ۸۵)

حین یقرأ القاریء هذه الأشعار، یظنّ أنّ المخاطب بالتأکید مؤنث، ولکن فی کثیر من أشعاره لایوجر أثر من الأنثی أصلا، وکل الخطابات للمذکر مع أنّ روایة حبّ العاشق للمعشوق فی هذه الأشعار مُحرقة ومؤلمة جداً، هذا النوع من الأشعار کثیر فی دیوان ابن الفارض ومنه ما قاله فی قصیدته الذالیة:

صَدٌّ حُمــی ظمإی لَمــاکَ لماذا، وهَــواکَ، قلبی صارَ منــهُ جَذاذا
إن کان فی تَلفی رضاک، صبابةً، ولکَ البقــاء، وَجَدتُ فیــه لَذاذا
کبِدی، سَلبتَ صحیحةً، فامنُن علی رَمَقــی بهــا، ممنونــةً أفــلاذا

(المصدر نفسه: ۱۱۶)

وفی بعض الأحيان استخدم الشاعر ضمائر الجمع وهذا مثلما قال فی القصيدة الفائية:

يا أهــلَ وُدّی! أنتــم أمَلی، ومَن ‏ ‏ نادَاكُــم يا أهــل وُدّی، قــد كُفی

عودو لمــا كُنتُم عليــه من الوفاء ‏ ‏ كَرَمــاً، فإنّی ذَلِــکَ الخلّ الوفی

وحياتُكم وحياتُكم، قســماً وفی ‏ ‏ عمری، بغيــر حياتِكم، لم أحلف

لــوأنَّ روحی فی يــدی، ووهَبتُما ‏ ‏ لمُبَشّــری بِقدُومكــم، لــم أنصِف

(المصدر نفسه: ۱۴۴)

هذه أنواع الخطابات فی شعر ابن الفارض، ويمكن أن يكون لكلّ منها تفاسير، علی سبيل المثال فی المكان الذی جاء باسم المرأة أو ضمير المؤنث فی كلامه، يمكن أن يكون فی ذهن الشاعر شخص مؤنث فی الحقيقة، أی يمكن أن نقول إن للشاعر فی البداية معشوقا مجازيا حتی فترة معينة، ولكن بعد مضی زمن رأی الشاعر من جانب معشوقته مرارات كثيرة، وقساوات عديدة ثمّ يئسَ منها، وأعرض عنها، ولكن بسبب العناء الذی عاناه وفشله فی غرامه طوال مدّة طويلة، تتعالی روحه وتنجذب إلی حبيب أعلی من حبيبته المادية، وحبه يملأ قلبه وهذا الحبّ مطهّر ومعظّم، ثم يهتدی إلی سبيل الرشد ويفنی حياته فی حبه الإلهی حتی نهايتها. ولكن يمكن أن يكون قصد الشاعر من إتيانه بالاسم أو ضمير المؤنث شیء آخر، وكذلک ضمير المذكر يمكن أن يكون رمزا للشخص المعين الذی لايريد الشاعر إظهاره. وضمائر الجمع للمذكر من الممكن أن يكون القصد منها أصدقاءه الذين يشتركون معه فی غاية واحدة وهم رفاقه فی الطريق إلی الله، أم يمكن أن يكون له معنی آخر وهو يخاطب أهل قبيلته أو قبيلة معشوقه. ومن الممكن أن يكون لكلٍّ هذه الرموز معنی واحد، وهو غايته النهائية وهی محبوبه الحقيقی وهو الله تعالی. هذه التفاسير موجودة لأشعار ابن الفارض، والآراء مختلفة فيها، ولكن الدقة فی أفكار الشاعر طوال حياته تعين القاریء فی الفهم الصحيح لأشعار ابن الفارض.

المرأة فی شعر جامی

نظم جامی أناشیده الغرامیة والمحرقة بحیث أنّ القارىء یظن أن له حبیبة مجازیة عزیزة، یحترق الشاعر فی حبّها هکذا، لأنّه یستعمل تعابیر جمیله لبیان حبه، وأوصافه لطیفة جداً بحیث یحتاج القارىء لقراءة أشعاره إلی زمن طویل، مع أنّ جامی لایستخدم اسما خاصا للمرأة فی غزله، ولکنه فی بعض الأحیان یقلّد الشعراء العرب، ویأتی ببیت فی مطلع غزله فیه اسم المرأة وهذا مثلما قال:

خَلیلــی لاحَــت لنا دَور سَــلمی　　نشان های سلمی شد از دور پیدا

وأیضا:

أحنّ شــوقاً إلی دیار لَقیت فیها جمال سلمی

که میرساند از آن نواحی نوید لطفی به جانب ما

وأیضا:

نائت سلمی ولکن لاح برق من مغانیها　　بلی منزلگه معشــوق را باشد نشانیها

(جامی،۱۳۴۱ش: ۱۳۳)

لایبدو أن یکون للشاعر قصد من هذه الأشعار بل أنّه أراد أن یستخدم ما شهر بین العرب فی غزلهم وهی اسم سلمی.

والشاعر فی بعض أشعاره یأتی بأوصاف جسدیة للمحبوب، کأنّه یصف معشوقة مجازیة وهذه الأشعار کثیرة عند جامی ومما یقوله فی ذلک:

ای ترا قدخوب و ابرو خوب و زلف وچهره خوب

بــر زبــان اهــل دل نام تــو محبــوب القلوب

بــا لــب نوشــین تــو زد لاف شــیرینی نبــات

مصریــان از شــهر کردنــد بیرونــش بــه چوب

وأیضا:

به رخســار وجبین وروی وعــارض بردی ای دلبر

فروغ از صبح ونور از روز وعکس از ماه وتاب از خور

به عارض گل به مو سنبل به بر نسرين به تن سيمين

به قد طوبا به رخ جنّت به خط توتى به لب شكر

(المصدرنفسه: ١٤٢)

وهو فى أشعاره الأخرى لايأتى باسم أو وصف للمعشوق بل يعبّر عن حاله:

ســاقيا زيــن هنر وفضــل ملوليــم ملول

ساغرى ده كه به شوييم زدل نقش فضول

مشكل عشق چو حل مى نشود چند نهيم

گــوش ادراک برافســانه اوهــام وعقول

(المصدرنفسه: ٥٠٠)

وأيضا:

نفس از درون وديــو زبيرون زند رهم   از مكر اين دو ره زن پرحيله چون رهم

دارم جهان جهان گنه اى شرم روى من   چون روى از اين جهان به جهان دگر نهم

(المصدرنفسه: ٥٢١)

وبإمعان النظر فى أشعار جامى يبدو لنا أنها امتلأت بذكر الأوصاف العديدة للمحبوب، وشكاياته عن الفراق وحكايات شوقه لوصله والتوصيفات التى تلطف الروح حقّا، ولكن هل الشاعر كان له معشوق مجازى أم لا؟ سؤال لايمكن للإنسان أن يبدى فيه رأيا قاطعا. ولكن بالتأكيد لكل ظاهر باطنٌ فى أشعار جامى، لأنّه كان شاعرا غاص الأعماق.

المقارنة بين الشاعرين فى استخدام الأنثى فى شعرهما

من الواضح أن الأثر الأنثوى مشهود فى أشعار الشاعرين ابن الفارض وجامى لأنهما يذكران اسما أو يستعملان ضمائر وأوصافا، تدل على وجود الشخص المؤنث والمعشوقة المجازية، ومن الممكن أن يكون هذا التفسير صحيحا لأن الله تعالى فطر الناس على الصفات والغرائز ومن أقوى هذه الغرائز الحب. والحُبّ من البداية يتجلى فى القالب البشرى ويذوق المرء طعمه بصورة مادية، مع أن كثيرين من الناس يبقون فى هذا القالب

المادّی ولایصلون إلی الغایة الأصلیة ولکن الذین هم أهل الطموح ولهم أرواح مطهرة، یمرّون من المرحلة المادیة بسرعة متوجهین إلی مالک الحب الحقیقی، وهو الحضرة الإلهیة و هم قلیلون جدا لأنّ الطریق خطیرٌ والوصول صعب جدا.

ابن الفارض وجامی هما اللذان جعلا القدم فی هذا الطریق، وجهدو فی طیها، هما عاشا لابتغاء مرضاة الله، وأفنیا حیاتهما لها. وشعرهما الذی نتج عن فکرتهما فیه مظاهر تبدی نزعتهما الإلهیة، من هذه المظاهر المرأة کانت لها تفاسیر فی شعرهما، ولکن بسبب أن الشاعرین من الشعراء الصوفیین وأنّ حیاتهما کانت حیاة زهدیة، ومضامین أشعارهما تؤکد هذا الموضوع، لایمکن أن نفهم من ذکر المرأة فی شعرهما مفهوما مجازیا، بل أنهما استخدما هذا الموضوع علی أنها مظهر الجمال الإلهی، والله تعالی لمّا قصد أن یصوّر جماله فی العالم خلق المرأة، وعند الصوفیین حولها أحادیث کثیرة، فیجب أن یفسر تفسیرا باطنیا دون ظاهره. ومن جهة أخری یجب أن یکون لکل شیء معنوی مظهر مادی وملموس للمخاطب، حتی یقدر أن یفهمه وهذا منهج القرآن، لما یرید أن یصف الجنّة والنّار یأتی بما یراه الناس فی هذا العالم من الأشجار والأنهار والفواکه أو الحدید المنصهر والماء الحمیم ومثل ذلک.

وقصة الحب هکذا حین یرید الشاعر أن یصف جریان حبّه، یجب أن یأتی بمصادیق قابلة للفهم، لهذا یستخدم قصة الحبّ المادّی کی یوصل معنی الحب المعنوی إلی ذهن القاریء، فهذه الأسباب تدفع شعراء الصوفیة کی یستخدموا الأنثی فی شعرهم.

النتیجة

الغزل الصوفی شعر یمتاز بالمضامین الصوفیة العالیة، والشاعرالذی ینظم هذا الغزل یجهد فی تطهیر روحه من القاذورات الدنیویة حتی یقرر صلته بعالم المعنی. والمظاهر المستخدمة فی هذا النوع من الغزل کالخمر والمرأة، رموز لبیان حالات الشاعر المعنویة والروحیة، وهو بسبب أن الشاعر معذور عن وصف علاقته مع الحضرة الإلهیة مباشرة فیلجأ لبیان أحاسیسه إلی الرمز. ابن الفارض وجامی شاعران من الشعراء الصوفیة وهما

استخدما هذان الرمزان وقصدا منهما الحب الإلهى الذى يدور حوله أكثر أشعارهما الصوفية.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

ابن الفارض، عمر. ٢٠٠۵م. *الديوان.* تحقيق مهدى محمد ناصرالدين. بيروت: دار الكتب العمية.

ابن غالب، رشيد. لاتا. *شرح ديوان ابن الفارض للشيخين حسن البورينى وعبدالغنى النابلسى.* بيروت: دار التراث.

جودة نصر، عاطف. لاتا. *شعر عمر ابن الفارض دراسة فى فن الشعر الصوفى.* بيروت: دار الأندلس.

جودة نصر، عاطف. ١٩٨٣م. *الرمز الشعرى عند الصوفية.* لبنان: دار الأندلس.

جامى، عبدالرحمن. ١٣۴١ش. *ديوان.* باهتمام هاشم رضى. تهران: انتشارات پيروز.

جامى، عبدالرحمن. ١٣٨٣ش. *رساله منشآت نورالدين عبدالرحمن جامى.* مصحح عبدالعلى نور احرارى. تهران: شيخ الإسلام أحمد جام.

جامى، عبدالرحمن. لاتا. *لوامع ولوايح فى شرح قصيده ابن فارض وفى بيان المعارف والمعانى العرفانية.* مقدمة ايرج افشار. تهران: كتابخانه منوچهرى.

حكمت، على اصغر. ١٣٨۶ش. *جامى (متضمن تحقيقات در تاريخ احوال وآثار منظوم ومنثور خاتم الشعراء نورالدين عبدالرحمن جامى).* تهران: انتشارات توس.

لارى، رضى الدين عبدالغفور. ١٣۴٣ش. *تكمله حواشى نفحات الأنس (شرح حال مولانا جامى).* تصحيح بشير هروى. تهران: انتشارات انجمن جامى.

إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الأولى – العدد الأول – ربيع ١٣٩٠ش / آذار ٢٠١١م

بين مولانا جلال‌الدين وحافظ الشيرازى؛
دراسة موازنة فی الغزليات العربية

مهدی ممتحن *
منيرأحمد شريعتى **

الملخص

كثيرة هى الدراسات التى تناولت شعر مولانا وحافظ بالبحث والدراسة، حتى يخيل للباحث فيه أنّه لم يعد شیء من هذا الشعر إلا وأخذ نصيباً وافراً من البحث والدراسة. ولكن حين ننظر فی شعر مولانا وحافظ ثم نلقی نظرة على أبحاث الباحثين، نشاهد هناک شيئا من الأدب الإيرانى الإسلامى الذى ما اهتم الباحثون به إلا قليلاً، ألا هی الأشعار العربية عند مولانا وحافظ الشيرازى التى تحكی عن سعة البال والفكرة والمقدرة على اللغة العربية، لاسيما عند مولانا جلال الدين الرومی. ومع إعادة النظر إلى أشعارهما نرى أنّ أشعارهما مملوءة بالحكم التی تنبع من التعاليم القرآنية وفيه أيضا التأثر بالآداب العربية ولاسيما الأدب العربی فی العصر العباسی، مع سهولة فی شعرهما العربی، كما نشاهد سعة الخيال وبعض أغراض الشعر العربی عندهما.

يحاول هذا المقال أن يوازن بين الأشعار العربية لجلال الدين الرومی وحافظ الشيرازی، ويقدّم من زواية جديدة جوانب من تجربتهما الروحيّة، لتقريبهما من القارئ الذى لم تتح له فرصة الاطلاع على سيرتی صاحبيهما.

الكلمات‌الدليلية: جلال الدين الرومی، حافظ الشيرازی، التغزل، الاقتباس، التأثير والتأثر.

---

*. أستاذ مشارک بجامعة آزاد الإسلامية جيرفت.
**. خريج جامعة آزاد الإسلامية جيرفت.
Dr.momtahen@gmail.com

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٢/١هـ. ش
تاريخ القبول: ١٣٩٠/٢/١١هـ. ش